الاعتراف لتحقيق تفاعل هويّاتيّ

أ.د. سامية بوعبيد

المعهد العالي للعلوم الانسانية بمدنين –جامعة قابس– الجمهورية التونسية

تاريخ الإستقبال:2023/09/06 تاريخ القبول: 2024/03/22

ملخّص: لم تعد الهويّة الاجتماعيّة و سلوك الأفراد نتاجا للأنا الأعلى و المؤسّسات الاجتماعيّة، بل أصبح يتحدّد افتراضيّا بدرجة كبيرة. فتأثّرت الثّقافة المحلّيّة بالانفتاح اللاّمحدود على الآخر و أصبحت بعض ملامحها وطقوسها مهدّدة في وجودها بسبب الغزو الافتراضيّ للثّقافات الأخرى. ضمن هذا الطرح قمنا بدراسة حول "الاعتراف لتحقيق تفاعل هويّاتيّ"بحثت في مدى تأثير"ثورة التّواصل" على الثقافة المحلّيّة معتمدة على منهج كيفيّ انتوغرافيّ يستند إلى تقنيّة الملاحظة بالمشاركة. انتهت الدّراسة إلى تثمين مفهوم الاعتراف الذي يسهّل الاندماج فيتحقّق وعي بالوجود المشترك.

الكلمات المفتاحية: التّواصل الشّبكي، الهويّة الذّاتيّة، الهويّة الثّقافيّة، التّفاعل، الاعتراف.

Recognition to achieve interaction identities

Bouabid samia

Higher Institute of Human Sciences of Medenine - University of Gabes - Republic of Tunisia

Abstract: the social identity and behavior of individuals is no longer a product of the superego and social institutions, but is determined by virtual influence to a large extent. The local culture was affected by the

unlimited openness to the other, and the existence some of its features and rituals became threatened due to the default invasion of other cultures. Within this framework, we did a stady about "Recognition to achieve interaction identities". that investigated researched the impact of the "communication revolution" on local culture relying on an a qualitative ethnographic approach based on the participant observation technique. The study ended with an appreciation of the concept of recognition, which facilitates integration and awareness of common existence is achieved.

Keywords: Network communication, self-identity, cultural identity, interaction, recognition.

01- مقدّمة

يعيش العالم، بعد التّطور التّكنولوجيّ الدّقيق في مجال التّواصل، "ثورته الرّابعة " على حدّ اعتبار كلاوس مارتن شواب Klaus Martin Schwab التّي أحدثت تغييرا كبيرا وجذريّا في علاقة الإنسان بالمعلومة والتّواصل والمعرفة.و أصبح التّواصل الافتراضيّ عبر الشّبكات الاجتماعيّة المتنوّعة ظاهرة عالميّة تستقطب كلّ الفئات العمرية والاجتماعية دون استثناء. و شجّع الفضاء الرقميّ على النّقاش والتّفكير والتّعبير من خلال الصفحات الخاصّة والجماعيّة. وأصبحت كلّ المواضيع متاحة للنّقاش والجّدل من الاجتماعيّ إلى السّياسيّ والثّقافيّ، وكلّ تفاصيل الحياة اليوميّة منشورة على هذه الصفحات، التّي تداخلت فيها مكوّنات الهويّة الثّقافيّة من معتقد و موروث وتراث ومعمار وتاريخ ومنتوجات، تناولتها أشكال تعبيريّة جمعت بين الشّفهي والمكتوب والمصوّر والموثّق.

وحضر فيها الرّمز والقيمة والقيم.و التقت الأضداد من ممنوع ومباح وحرام وحلال وغيرها. لم يكن المجتمع التونسيّ بمنأى عن هذه التّحوّلات فقد ارتفع مستخدمو هذه الوسائل بعد الثورة التكنولوجية في مجال التواصل وبروز الشبكات الاجتماعية. تعتمد هذه الشبكات على تطبيقات دقيقة ولها طرق عديدة لاستقطاب متابعين والتّأثير في سلوكهم. يهدف البحث إلى دراسة التّحول

في شكل العلاقات الاجتماعية وبعض السلوكات بين الأفراد والمجموعات نتيجة التّردّد المتواصل على شبكات التّواصل الافتراضيّ التّي ساهمت في صناعة العديد منها. أثّرت الثّورة التّكنولوجيّة في مجال التواصل على تماسك المجتمع وتنشئة الأفراد وثقافتهم، لأنّ هذه "الشّبكات هي ضرب من الأرحام تهبنا ضربا جديدا من المجتمعات، هي مجتمعات تنتظم فيها الهويّة والسّياسة والاقتصاد وتعمل معا في شكل شبكة

لكن مفهوم الشّبكة لا يعني الدفع بالفرد إلى التّماهي مع المجتمع والفئات المهيمنة عليه، ولا تعني أيضا أن تكون الدّولة والأمّة والهويّة والقوميّة كائنات أكبر من الأفراد" (دارن بارني،2015، ص12). لقد أصبحت نسبية مقولة "إذا تكلم ضميرنا كان المجتمع هو المتكلّم فينا...ولن يتجرأ اميل دوركايم Émile Durkheim اليوم على قولها أمام طلابه...ورؤوسهم تختفي أمام حواسيبهم المحمولة (جوهر الجمّوسي،2016، ص1). لقد استبعدت التّكنولوجيا اليوم كلّ الحتميات التّي تكبّل الفرد وتعيقه عن الفعل، وتخلخلت السّرديات التّي تعبّر عن تصوّر موحّد للواقع، فلا وجود لحقيقة ثابتة، ولا موضوعيّة دقيقة، والفرد لا يسأل: من أكون أنا؟ بل يسأل ما الذي يجعله على هذا النّحو دون سواه. لأنّ الوجود يقوم على شبكة معقّدة من العلاقات والرّموز التّي تشعّبت وامتدّت كثيرا بعد التّطور الدّقيق لوسائل التّواصل الشّبكي وأصبح "الآخرون يتدخّلون في تكوين الأنا أو الهويّة وبنائها" (محمد عبد السلام الأشهب، 2013، ص11) فتصبح الهويّة المحلّيّة في تحدّ كبير خاصّة في دينها وقيمها ومثلها وكلّ مكوناتها الثّقافيّة التّي تهبها خصوصيّة، بعد بروز ظاهرة عالميّة أحدثتها الثّورة الاتّصاليّة الكبرى تسعى لوحدة فكريّة، ثقافيّة، واجتماعية واقتصادية وسياسية في ظلّ رؤية كونيّة لقضايا المجتمعات الإنسانيّة لبناء عالميّة شاملة تحمل سمات التّقدّم والتّحضّر من أجل العيش المشترك ونبذ الصّراع.

02-الدّراسات السّابقة في الموضوع:

يدخل هذا المبحث ضمن الدّراسات الاتّصاليّة التّي تتناول التّطوّر التّكنولوجيّ في مجال الاتّصال وتأثيراته المختلفة، ولعل جانب التّأثير على الأدوار الاجتماعيّة والهويّة الثّقافيّة هو جزء من هذا المبحث الحديث الذي مازال الحبر يسيل فيه ولمّا يفيه حقه نظرا للتّحوّلات العميقة التّي شهدها

العالم بصفة عامة والعالم العربي بصفه خاصة، إثر الثّورة الاتّصاليّة. لقد تحوّل عالمنا وفي فترة وجيزة إلى مجتمع شبكيّ أركانه الهواتف الذكيّة والحواسيب والانترنت ويحرّكه العقل البيولوجيّ. تناول الباحث التّونسيّ جوهر الجمّوسيّ في كتابه "الافتراضيّ والثّورة .. مكانة الانترنت في نشأة مجتمع مدنيّ عربيّ"(2016) إعادة توزيع علاقات القوّة بين المجتمع ودولته، حيث انتقلت هذه السّلطة من الدّولة إلى كيانات اجتماعيّة تتّحد مع بعضها لتشكّل مجتمعا مدنيّا يتمتّع بسلطة التّعبير، قادرا على زعزعة أركان العلاقات الأسرية والاجتماعية. انطلق من السّؤال التالي: كيف التّعامل مع الظّاهرة الاتّصاليّة الجّديدة عاليّة التّدفّق والمؤثّرة في العلاقات الاجتماعيّة كلّها؟ وهو السّؤال المركزي ويحتوي على عدّة إشكاليّات منها الإشكاليّة الأساسيّة التّي سنتناولها في هذا البحث.

-**03 إشكالية البحث:** انطلقنا في هذا البحث من الإشكاليّة التّاليّة: كيف نحقّق اعترافا هويّاتيّا يراعي الخصوصيّة في ظلّ انفتاح اتّصاليّ لا محدود؟ فمع مقولة العالم "قرية" لم تعد هناك حواجز وخصوصيّة بما فيها الثّقافيّة وأصبحت هذه " القرية" تقوم على مبادئ السّوق والتّبادل التّجاريّ والإعلاميّ والتّكنولوجيّ. فانتهت عدّة مفاهيم توحي بالخصوصيّة والاستقلال. وتشكّل وعي بالوجود المشترك فأصبح العالم العربي يواجه عدّة تحدّيات وجب التهيّؤ لها ومواجهتها. ومواكبة التطور العالمي وإعادة تنظيم علاقاتنا بمن حولنا بشكل جيّد، بعدما أحدثت العولمة تمزقا بين الأصيل والدخيل والمحلي والوافد. و لم تعد التّنشئة الاجتماعيّة تتقيّد بالشّروط الثّقافيّة لتكون ناجحة وغير مشوّهة كما يرى جورج لوكاتش Georg Lukács. بل أصبحت التّنشئة تتشكّل افتراضيّا وهو ما يهدّد بتمزّق واغتراب اجتماعيين. لأنّ الهويّة الثّقافيّة أصبحت مهدّدة في وجودها فقد نتماهى في الآخر فتنتفي هويّتنا أو قد ننعزل عنه كليّا فتزداد الفجوة بيننا وبين العالم الرقميّ لذلك طرحنا الأسئلة التّاليّة:

-كيف أثّر التّفاعل الشّبكيّ على تشكّل السّلوك والتّنشئة وكيف تتمّ صناعتهما افتراضيا؟

- إلى أيّ مدى تصمد الهويّة الثقافيّة والتّماسك الاجتماعيّ أمام القدرة التّأثيريّة لهذه المواقع بتطبيقاتها المختلفة؟

و في ظلّ الصّراع بين الذّاتيّ والمشترك، وبين الأصيل والوافد، هل يصبح الاعتراف المتبادل ضرورة لتحقيق التّماسك الاجتماعي وبلوغ ثقافة إنسانيّة تتجاوز الاختلاف وتحقّق اندماجا هويّاتيّا يثمّن دور الآخر في الثّراء الثّقافيّ ويعيره الاهتمام باعتباره عاملا حيويا لانبثاق هذه الثّقافة؟

-04 الفرضية: تأثّرت الهويّة الثّقافيّة المحلّيّة والتّماسك الاجتماعيّ بالغزو الاتّصالي وتمّت صناعة هويّات ثقافيّة متعدّدة أصبح معها الاعتراف ضرورة لتحقيق اندماج هويّاتيّ يضمن العيش المشترك ويساهم في نحت ثقافة كونيّة.

-05 المدخل النّظري لبناء مفاهيم الدّراسة: قبل الحديث عن المنهج المعتمد في البحث ووسائله سنقوم بتأطير الدّراسة نظريّا من خلال الوقوف على المفاهيم الأساسيّة للبحث التّي تعتبر الأساس النظريّ لكلّ دراسة في مجال الدّراسات الإنسانيّة عامّة والاجتماعيّة خصوصا. سوف لن نغوص في الجدل المعرفي النّظري العقيم الذي خلقه المفهوم بل نعمل على الانتقال بالمفهوم من مستواه النّظريّ المجرّد إلى مستواه النّظريّ الإجرائيّ لذلك وجب ربط المفاهيم بالنّظريّات التّي أنتجتها وبالواقع الميدانيّ.

أ-مفهوم الاعتراف: هو من بين المفاهيم الفلسفيّة التّي اكتسبت أهمّيّة قصوى لاهتمامها بالتّحوّلات التّي تطرأ على المجتمعات البشريّة. نشأ مفهوم الاعتراف في ظلّ ما شهده العالم من أزمات إنسانيّة وأمراض اجتماعيّة متتاليّة. فهو حاجة حيويّة لا يمكن الاستغناء عنه داخل مسار تطوّر البشريّة لما يتميّز به من بعد عمليّ يأتي إثر وقوع أزمة ما محاولا البحث عن إمكانية معالجتها والتخفيف من تداعياتها. صاغ الفيلسوف الاجتماعي الألماني إكسيل هونيث Axel Honneth مفهوم الاعتراف وقامت أغلب أعماله على نظرية الاعتراف بما هو قبول الآخر والإقرار بقيمته وتقديره. وهو الطّرح الذي قدّمه إكسيل هونيث ممثّل الجيل الثّالث لمدرسة فرنكفورت مقابل التشيّئ الذي تسبب في عديد الأمراض الاجتماعيّة إبّان الثّورة الصّناعيّة وتركيزها على العمل والإنتاج وإهمالها العامل كذات بشريّة لها مجموعة من الحقوق والمشاعر وجب احترامها. شخّص إكسيل هونيث هذه الأمراض الاجتماعية للمجتمع الغربي بإعادة بناء التّجربة الاجتماعيّة من خلال تحديد أشكال الاعتراف التّذاوتي ونبذ الاغتراب. وأعاد هونيث

صياغة مفهومي الاعتراف والكفاح "حيث يمثّل الاعتراف هدف كلّ الممارسات الاجتماعيّة والفرديّة،

أمّا الكفاح فهو الطريق لتحقيق الاعتراف" (كمال بومنير، 2012، ص90). ويحضر مفهوم الاعتراف بقوّة عمليّا وليس تنظيرا فقط لأنّ "التقدّم الإنسانيّ مرتبط أشدّ الارتباط بأشكال الاعتراف المتبادل" (نوردين علوش،2013، ص122-123). لتحقيق نوع من التّعايش المشترك. اقترن النّظر في مفهوم الاعتراف بمسألة تشكّل الهويّة الذّاتيّة في ظلّ التّعدّديّة الثّقافيّة التّي صارت تشهدها جلّ المجتمعات نتيجة الثّورة التّكنولوجيّة في مجال التّواصل ما يجعل كلّ فرد يتطلّع إلى الاعتراف بهويّته الفرديّة باعتباره كيانا مستقلاّ له مقوّماته الخاصّة التّي تميّزه وهكذا أصبح تشكّل الهويّة الذّاتيّة يتعلّق تعلّقا جوهريّا بمفهوم الاعتراف وأصبح الاعتراف من أجل التّذاوت ضرورة في ظلّ التّعدّد الثّقافيّ.

ب-مفهوم التّفاعل: أصبحت المقاربات الفلسفيّة منذ القرن العشرين مبنية على التّفاعل كردّ فعل على الفلسفة المثاليّة التّي تمركزت حول الذّات وتجاهلت الآخر. وساعدت فلسفة جورج ويليام فريدريك هيقل Georg Wilhelm Friedrich Hegel على شقّ الطّريق أمام التّفاعل في نظريّة العبد والسيّد حيث اشتغلت على نقد فلسفات الذّات ومنها فلسفة ديكارت René Descartes والكوجيتو الديكارتي الشهير "أنا أفكر فأنا موجود " الذي اختصر الوجود في الوعي بالذّات ولا يعير الآخر أي اعتبار. و أصبحت العلوم الاجتماعية والانتروبولوجيا تعتمد كثيرا على المقاربات التّفاعليّة حيث اشتغلت نظريّة الفعل لماكس فيبر Max weber على دراسة التّفاعل بين الأفراد وأهميّة الآخر في تشكّل الأنا. ثم برزت أهمية التفاعل أيضا مع التّفاعليّة الرّمزيّة والتّي هي محاولة نظريّة ومنهجيّة تقوم على أسس فلسفيّة وسيكولوجيّة وتتطلّع نحو تحقيق فهم أعمق للحياة اليوميّة والعلاقات الاجتماعيّة من خلال التّفاعلات التّي تحدث بين الأفراد. فاهتمّت التّفاعليّة الرّمزيّة بالتّفاعلات التّي تقوم بين الجماعات والأفراد وتناولت اتّجاهاتهم والمعاني التّي يعطونها لسلوكهم ولسلوك الآخرين. وفي الفلسفة الظّاهراتيّة سعى مؤسّسها الفريد شوتز Schütz Alfred إلى تحليل عالم الحياة اليوميّة من خلال تجميع الأنشطة الذّاتيّة للأفراد

الذين يساهمون في بناء وتشكيل الحياة الجماعيّة عن طريق التّفاعل الذي يساعدهم على معرفة العالم الخارجي هذا العالم الذي امتد اليوم افتراضيا وأصبح مترامي الأطراف لشساعته لكنّه قرية في انفتاحه على بعضه البعض وقرب مسافاته تكنولوجيا. تحدث موريس مارلوبنتي Maurice Merleau– pontyكذلك عن التّفاعل الذي يتمّ عبر التّذاوت والتواصل بين النّاس. ويعوّل مفهوم التّفاعل والتّذاوت على الفهم المشترك للوجود الإنسانيّ. وواصلت الفلسفات المعاصرة مسيرة التّفاعل وعمّقتها في جبهات كثيرة كفلسفة اللّغة وأعمال لودفيق فيتجنشتاين Ludwig wittgenstein ودراسات تشارلز تايلورCharles Taylors عن الذّات واللّغة والجماعة، وابتعدت اللّسانيات عن تناول المسائل اللّغويّة المجرّدة والعقيمة واتّجهت نحو دراسة استعمالات اللّغة وخصائصها الإنجازية وعلاقة المنطوق بالسّياق وأخضعت الوقائع إلى التّحليل واهتمّت ب"النسق" أو"البنية" داخل اللغة . واعتبر علماء اللّسان أنّ اللّغة ماهي إلا نسق من الاتصال يتم من خلاله تبادل الرسائل أو الشفرات الخاصة بهذه العناصر وبالآخر.

ج– الهويّة الذّاتيّة: تتشكّل الهويّة الذّاتيّة من خلال علاقة الأنا بالآخر ومن خلال مجموع الأدوار التّي يقوم بها الفرد وتتّصف الهويّة بالتّغيّر وعدم الثّبات بسبب تغيّر الأدوار التّي يكون عليها الفرد، وهي أدوار متغيّرة حسب الفترة العمريّة والبيئة الثّقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتختلف سمات الهويّة الذّاتيّة من شخص إلى آخر. تأثّرت الهويّة الذّاتيّة بالتّطوّر التّكنولوجيّ في مجال التّواصل الذي غيّر علاقتنا بذواتنا وبالمعرفة وبالآخر وغيّرت أشكال ولوج المعلومة والتّصوّرات التّقليديّة للمعرفة و"أعادت تشكيل هويّتنا الشّخصيّة بإعادة رسم الهويّة الذّاتيّة جذريّا" (Remy Rieffel,2014,p34) فبعدما كانت الدّولة تتدخّل في صياغة الهويّة المدنيّة للذات الفرديّة ويتدخّل المجتمع ليفرض هيبته وقيمه وفرائضه على الفرد من خلال مؤسّساته التّي توضّح الأدوار وطرق التّعامل معها و"يوضّح لهم ما هو مشترك بينهم وبين مجموعة الانتماء والهويّة الثّقافيّة التّي تتأسّس على اللّغة والمعتقدات والأخلاق والعادات (Maude 2015,p15 ,bonenfant)، هاهو الفرد يتمرّد على" سيّده" ويشاركه العالم الرقميّ في تشكيل هويّته.

د- تكنولوجيا التواصل: أدّى التّطوّر التّكنلوجيّ إلى بروز الانترنت وهي اختصار لكلمتينnetworks – interconnected وتعود نشأة الانترنت إلى زمن الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي سابقا والولايات المتحدة الأمريكية التّي أسّست "وكالة مشروع الأبحاث المتطوّرة" كردّ على "مركبة سوتينيك السوفياتية". أطلقت هذه المركّبة في الفضاء سنة 1957 وقد تلاها خوف أمريكي من إمكانية تدمير شبكة الحاسوب الأمريكية والنّيل من محتوياتها المعلوماتيّة لو نفّذ الاتّحاد السوفياتي ضربة نوويّة ضدّها. فجاء الرّد سنة 1969 متمثّلا في تطوير شبكة "الأنترنات" من خلال تطوير بروتوكولات الاتّصال التّي سمحت بالرّبط بين الشبكات المختلفة لتشكيل شبكة واحدة مترابطة تابعة لمركز بحث في الجامعة الأمريكيّة، ويعتبر ذلك إنجازا لأنّه يحمي المعلومات من الاتلاف حتّى وإن تمّ الهجوم على أحد تلك المراكز لأنه أوجد نظام لامركزية المعلومة. تعتمد تكنولوجيا الاتصال على مجموعة من الأدوات والموارد التّكنولوجيّة لنقل المعلومات أو إنتاجها، أو مشاركتها وتبادلها بين المستخدمين. تجمع هذه الوسائل أجهزة الكمبيوتر والانترنت ومواقع الواب والمدوّنات وباقي وسائل التّواصل الشّبكيّ، وكذلك تقنيات البثّ المباشر كجهاز الراديو والتلفزيون والبثّ عبر الانترنت، والبثّ غير المباشر ويشمل الفيديو ووسائط التسجيل. وتشمل الاتصالات كذلك الهواتف الثابتة والمتنقلة عبر الأقمار الصناعية، ومؤتمرات الفيديو وتقنية الزووم وغيرها التي تؤمّن التّواصل عن بعد. وترتبط الانترنت، بماهي شبكة اتصالات عالمية، بعشرات الآلاف من شبكات الحواسيب المختلفة في الأنواع والأحجام. وهي نظام اتّصالي يسمح بتبادل المعلومات شبكيّا وهذا ما يؤكد أنّ مصطلح شبكة المعلومات يشير إلى اشتراك مؤسّستين أو أكثر من مؤسسات المعلومات في نظام تعاوني يسمح لأي طرف عضو في الشبكة أن يسترجع ما يحتاج إليه من معلومات. أما مصطلح الشبكات فهو البديل لمصطلح النظم systems consulte وهناك نوعان من الشبكات، إحداهما للمعلومات العامّة، والأخرى للمعلومات المتخصّصة، ويتركّز أكثر من نصف هذه الشّبكات في الولايات المتحدة الأمريكية ويتوزّع الباقي بين أروبا وباقي العالم، وتعدّ الانترنت من أكبر شبكات المعلومات في العالم وأكثرها تشعّبا وانتشارا وتقوم على أحدث وسائل تكنولوجيا الاتصال في بث المعلومات إلى

ملايين المشتركين بها. ومن أشهر مواقعها نذكر موقع فيسبوك، فقد دوّن مؤسّس هذا الفضاء مارك زوكيربيرج Mark Zucherberg على صفحته يوم 3 أكتوبر 2012 أن المتفاعلين على الشبكة وصل إلى المليار في الشّهر، ويعني هذا الرقم أن أكثر من ثلث مشتركي الانترنت لهم حسابات فيسبوك. وعبّر مارك عن فخره بكل الموجودين على الشّبكة، ووعدهم بأن يعمل قصارى جهده مع بقية الفريق العامل لضمان جودة خدمات هذه الشبكات (رحيمة الطيب عيساني، 2016، ص23).

-هـ- الهويّة الثّقافيّة: اجتمعت عوامل عديدة منها تاريخيّة، وحضاريّة وسياسيّة ساهمت في أن تجتمع الأعراق المختلفة في رقعة الأرض الواحدة. فشهدنا أثنيات وأعراقا وطوائف تشكّل النّسيج الاجتماعي لمنطقة ما فترتسم آفاق هويّتها التّي تفصح عنها من خلال نتاج ثقافي شعبي ثريّ ومتنوّع "ولا يكشف عن نفسه إلاّ في شكل رمزيّ حيث لا يتحقّق الاتّصال والتّواصل بين النّاس سوى عبر الرّموز والعلامات المشتركة" (Marcel. Mausse, 1983,p294) ويعبّر عن ثروة وطنيّة من الذّاكرة الشّعبية جديرة بالاهتمام والاستثمار. و تربط جسور التّواصل بين البشر ويتمّ من خلالها تبادل الخبرات الحياتيّة الذّهنيّة والعمليّة وتعتبر اللّغة من أهم عناصر الثقافة ومكوّنا للهويّة وتجعل الثّقافة قابلة للتّداول مع الآخرين رأسيّا عبر الأجيال وأفقيّا عبر المناطق الجغرافيّة المختلفة. وقد عرّفها الأنثربولوجي البريطاني إدوارد تايلور عالم الثقافة بأنها: ذلك الكل المركب الذي يضمّ المعرفة والعادات والمعتقدات والأخلاق والفن والقانون، وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع. والثقافة ليست القدر الذي لا محيد عنه أو ذلك الاجتماع الذي يساهم أساسا في إعادة إنتاج النّظام الاجتماعيّ فحسب، بل هي صياغة للقدر على النّحو الذي يستجيب لإرادة المجتمع (Pierre. Bourdieu, 2001,p204) فهي ليست فقط صدى لما هو كائن وإنما هي طموح إلى ما يكون، ضاربة في الأعماق ومنفتحة على الآفاق. ينظر إلى ثقافة شعب ما على أنّها خلاصة الفكر الشّعبي للجماعات التّي تعيش في نفس المكان ويحدث تفاعلها واحتكاكها ببعضها لونا من الإبداع المتعدّد في مجالاته وصدى لمهارات وصفات انتقلت عبر الأجيال وله من الخصائص والصّفات التي تحدّد للفرد فيها نوعا مميّزا من السّلوك يقوم على

مجموعة من المثل والقيم والمقوّمات وتؤسّس في مجملها الثّقافة الشّعبيّة التّي تتوارثها الأجيال عموديا وتتفاعل معها أفقيا ويعبّر من خلالها الفرد عن صلته بالمكان وما يستمدّه منه من قيم وسلوك وخبرات يجعل منها هويّته الثّقافيّة.

-06 المنهج: إنّ خصوصيّة المادّة المدروسة لا تخفي الصّعوبات المنهجيّة في تناول مثل هذه البحوث خاصّة عند اختيار المنهج، فهل نقوم بتوظيف المناهج المعتمدة في الدّراسات الإعلاميّة التّقليديّة وتطبيقها في بحوث تتناول الإعلام الجديد ووسائله المستحدثة؟ وهل نستطيع الجمع بين عدّة مناهج لدراسة الظّاهرة في مراحل مختلفة من البحث تراعي خصوصيّة موضوع البحث؟

أ- المنهج الإثنوغرافي:

عندما تبيّن قصور المناهج الكمّيّة المستخدمة في الدّراسات الاتّصالية على إمكانية الغوص في أعماق الظاهرة والإتيان ببيانات دقيقة تتجاوز المعلومات السطحيّة المتداولة خاصة في ظلّ التطوّرات الدّقيقة في عالم التكنولوجيا، أصبح اللّجوء إلى المنهج الاتنوغرافي في هذه الدراسات ضرورة ملحّة، لأنه يقوم أساسا على أداة الملاحظة بالمشاركة ويشير مصطلح الإتنوغرافيا إلى"وصف جماعة ما من خلال محاولة الإجابة عن أسئلة تتعلّق بحياة الجماعة أو الأفراد وهي بذلك تربط ما بين الثّقافة والسّلوك الإنسانيّ طيلة فترة زمنيّة محدّدة وتركّز على معارف تفصيليّة حول حقائق الحياة الاجتماعيّة من خلال عدد صغير من الحالات يدرسها الباحث بمعايشة الجماعة...يتطلّب وقتا طويلا للملاحظة والمقابلة وتسجيل المعلومات" (فتحيّة بوغازي،2017، ص 33) .

يعرف المنهج الاتنوغرافي على أنّه مجموعة من الخطوات المتّبعة من أجل دراسة وفهم أساليب عيش مجموعة ما، ومحاولة التّعرّف إلى طرق العيش في جانب من جوانب حياتهم اليوميّة. ويتطرّق هذا المنهج إلى دراسة السّلوك والأفكار والمعتقدات وما يصنعونه من أشياء وكيف يتعاملون معها، ويتمّ ذلك باعتماد الملاحظة للوضع الطّبيعي لمعيشهم اليوم. تكثر في البحوث الاتنوغرافية طرق الوصف والتّحليل باستخدام الكلمة والعبارة دون الجداول والأرقام الإحصائيّة.

ويسعى الباحث الاتنوغرافي إلى البحث عمّا هو غير متوقّع من خلال معايشته العميقة لأفراد هذا المجتمع ليمكّنه ذلك من الإلمام بأوضاعهم وجمع ما يمكن من البيانات التّي تفيد في البحث، فيتولّى الباحث نقل ما يسمعه وما يشاهده من خلال تقنية تسجيل بعض الآراء والرؤى والمقترحات التّي تأتي على لسان أفراد العيّنة المشاركين في البحث. وقد يلجأ الباحث إلى وسيلة المقابلة لجمع البيانات وربطها بالوقائع والمفاهيم واستخلاص النّظريّات من الميدان مباشرة " (فتحيّة بوغازي،2017، ص 32) أمّا عندما نستهدف جمهور الوسائط الجديدة فإنّ اتنوغرافيا الانترنت تهتم "بدراسة السّلوك الاتّصاليّ للمجتمعات الافتراضيّة التّي تعتمد على التّفاعل فيما بينها من خلال الانترنت بدون حواجز جغرافيّة أو سياسيّة ومن أهمّ ما يميّزها أنها تشترك في الأهداف والاهتمامات". (حنان رضوان، 2013)

ب- الملاحظة بالمشاركة:

يستأنس الباحث بأداة الملاحظة بالمشاركة عند معايشة جمهور ما لفترة زمنيّة محدودة فيراقب ما يسمع وما يحدث وما يقال، ويرصد شكل الكتابة ومفرداتها ويجمع ما يمكن من البيانات التّي تسلّط الضّوء على القضايا المحوريّة في البحث ليتمكّن من القدرة على تفسير سلوكاتهم، واتجاهاتهم، وتأويلاتهم المختلفة حول الموضوع. فالملاحظة بالمشاركة تفيد كثيرا في جمع البيانات المهمّة في البحث. ويفترض في الباحث أن يتمتّع بعقليّة ثقافيّة معرفيّة مفتوحة، ليتمكّن من مشاركة مجتمع البحث بصورة متكاملة.

ج- تحليل المضمون: سنستعين في بحثنا بتحليل مضمون بعض المنشورات الافتراضية التي تعبّر عن تطوّر بعض السّلوكات الثّقافية نتيجة التّواصل الشّبكي. و التّي تساعدنا في معالجة بعض الإشكاليات المطروحة.

-07 نتائج الدراسة:

I-ثورة الاتّصال والدّيناميكيّة الاجتماعيّة:

تمثّل ثورة المعلومات التّي نعيشها اليوم، إحدى أهم الثورات التّي عرفها التّاريخ البشريّ، إذ أصبحت المعلومات وطرق تداولها وحفظها واسترجعاها، وآليات انتقالها غاية في التّطوّر، وفي متناول كلّ الفئات الاجتماعيّة بقطع النّظر عن العمر والمستوى الاقتصاديّ للأفراد. وساهمت الثّورة المعلوماتيّة بكلّ مكوّناتها في الانفتاح اللاّمتناهي على الآخر و اختصار المسافات ونهل المعلومة من مصادرها مباشرة ودون وسيط. وبرزت صحافة المواطن التّي مكّنت الأفراد من المبادرة وصناعة المحتوى ومزاحمة أكبر الفضائيات التلفزيّة العالميّة في السّبق الإعلاميّ، فبعدما كانت التّلفزات المحليّة لوقت قريب هي المزوّد الوحيد بالمعلومة، ولها قدرة على التّأثير والتّوجيه والضّبط الاجتماعيّ، أصبحت اليوم المعلومات تنشر بطرق جديدة. فغيّرت عناصر العمليّة الاتّصاليّة كليّا وظهرت صحافة المواطن مع الواب الاجتماعي كالفيسبوك و التويتر والانستغرام والتيك توك والتليغرام وغيرها...) المنفتحة على العالم فقرّبت المسافات وحقّقت مقولة أن "العالم قرية" من حيث سهولة التواصل وتبادل المعلومات. وتضمّنت هذه المواقع صفحات ضخمة من حيث عدد المتابعين ولها القدرة على الاستقطاب والتأثير وتغيير السلوك. ومن هنا نتبين علاقة العولمة كتيار جديد بالتغيّر الاجتماعيّ. أثّرت تقانة المعلومات على عمليّة التّفاعل الفرديّ والجماعيّ داخل مؤسسات المجتمع من المحيط الأسريّ، إلى المحيط الاجتماعيّ، لأنّ الإنسان يسعى جاهدا إلى اكتشاف طرائق جديدة للتّواصل تتناسب و ظروفه الموضوعيّة. فهل ستصمد الثقافة المحلّيّة مع الانفتاح الثّقافيّ في عهد الثّورة التّكنولوجيّة؟

إنّ التّطور في مجال التّواصل فرض التغيّر الاجتماعي بعد أن تشابكت العلاقات وانفتحت على الآخر، وتعدّدت المصالح وتنوعت طرق تأدية الخدمات، وبرزت الصداقات الافتراضية والخدمات

عن بعد، وتبادل الخبرات افتراضيا، فتأثّر معيشنا اليومي بالتّطور التكنولوجي وما أفرزه من سلوكات وعادات وممارسات جديدة. إن قبول التّغير الاجتماعي ليس من المسلّمات لأن التّغيير يُواجه بشراسة من طرف البعض الذي قاطع هذه الوسائل وامتنع عن الانخراط في عالمها. ويواجه بتحفّظ من البعض الآخر في جميع المجتمعات تقريبا خاصة عندما يشمل التّغيّر السّلوكات والمعتقدات التّي شكّلت جانبا من هويّة الأفراد بمقتضى العادة والتّكرار فخلناها طُبعت في اللاوعي الجمعي ولن تتزحزح، لكنّها سرعان ما تأثّرت بالثّورة التّواصليّة فطرأت عليها تّغيرات فاندثرت في جزء منها، وتغيّرت طقوسها في جزئها الآخر، ومن هنا جاء الخوف من الغزو الثقافي عبر الانترنت وإمكانية ذوبان الهويّة مع غزو الثقافات الأخرى خاصة و أننا لاحظنا تغيّرا في السّلوك العائليّ والاجتماعي على حد السواء سنبيّنه لاحقا.

II-العائلة والعولمة: تمثّل الأسرة اللّبنة الاجتماعيّة الأولى التّي تتكوّن فيها شخصيّة الفرد وتقوم التنشئة السويّة على علاقات الحبّ المتبادل بين أفراد العائلة الواحدة الذي يُنشئ رابطة قوية وعلاقات تفاعلية تؤسس للاعتراف المتبادل بين أفرادها، فيشعره بقيمته ويكسبه ثقة في ذاته و"الحبّ يفهم منه هنا كلّ العلاقات الأوليّة التّي تتمظهر في أشكال العلاقات الإيروسية، والوديّة العائليّة والتّي تؤسّس لروابط قويّة بين عدد محدّد من الأشخاص". (Honneth, A, 2010, p170). وهذه الرّوابط القويّة هي الضّامنة لسيرورة المخزون الثّقافيّ المتنوّع الذي تمرّره العائلة لأفرادها عبر التّنشئة فهي النّواة المنتجة لأفراده ولكيانه الرّوحي والماديّ. وقد اعتبر علماء الفلكلور أن مقياس الحضارة وهويّة العائلة هي بمقدار ما تنتجه من عادات وتقاليد خاصّة بها، وما توليه من اهتمام ومحافظة على تلك العادات والتقاليد لأنّه مصدر هويتها الثقافيّة والحضاريّة. لذلك تعتمد العائلة أساليب عديدة في التّنشئة لفرض هويّة اجتماعيّة موحّدة تساهم في إرساء انسجام مجتمعيّ يسهل فيه الاندماج والتّوافق وتقلّ فيه الأمراض الاجتماعيّة. فالعائلة هي النّواة الأولى في المجتمع وهي بمثابة مجتمع مصغّر يخضع أفرادها في تفكيرهم واتجاهات سلوكهم إلى مجموعة من التّنظيمات المكتسبة والمعروف باسم التّراث الاجتماعيّ والثّقافة وتشمل النّظم الاجتماعيّة والعادات والتّقاليد والقيم وكل ما يوجّه الحياة الإنسانيّة من جوانب ماديّة وغير ماديّة.

وتشمل الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والفكريّة والثّقافيّة من شعر ورقص وطبخ وغناء وفن ورسم وزخرفة ونسيج وحرف وأعراف. ولتثبيت تلك الموروثات والعادات قد تعتمد العائلة سياسات الترغيب فيها وتكرارها والتّرهيب من مغبّة التّخلي عنها. فيتمّ تمجيد من يحافظ عليها ويقوم بصيانتها ويتمّ تفسير كل خير ناله الفرد في الحياة هو ثواب له لحسن تعامله مع الموروث، وسينال رضاء وبركة الآباء والأجداد والأولياء، وعلى عكس ذلك فقد يتمّ التّرهيب والتّنفير من طمس بعض المعتقدات وعدم احترامها، وللعائلة أسلوبها الخاصّ في ردع أفرادها عند التّخلي عن بعض مقوّمات ثقافتهم المحلّيّة ببعض الجمل من قبيل "لا يجب طمس الأسبار" و"السّبر في المخيال الشعبي هو الطقس (طريقة في الاحتفال والعبادة) "أويقولون عبارة "موش مليح" للمتخلّي عن تلك العادات أي أن التّخلي وترك بعض الطقوس فعل غير محبذ اجتماعيا وقد يجلب الخيبة والنحس لتاركها. فقد يفسر عدم الإنجاب الذي قد يعترض له بعض المتزوجين الجدد بأنه بسبب التّخلي أو تغيير طقوس الزواج أو الخطبة. وهناك من يفسر حوادث الموت التي تقع لأقارب العريس أو العروس بأنها جراء مخالفة بعض الطقوس من ذلك نجد بعض العروش في الجنوب الشرقي التونسي تحرّم على العريس إهداء الحلي لعروسه فتنتشر مقولة "الخلال برقبة " و"الخلال" هو حلي تقليديّ يقدّمه العريس للعروس في أوّل أيّام الاحتفال و"الرقبة" أي موت أحد الأفراد من عائلة العريس أي أنّ من يحاول مخالفة ذلك الطّقس سوف يفقد عزيزا عليه وهو نوع من التّرهيب الذي تعتمده بعض العائلات للنّهي عن بعض السّلوكات التي ترى فيها تبذيرا. فكنّا نرى عائلات مترفة وتلتزم بذلك الشّرط احتراما لطقوسها وخوفا من مغبّة مخالفتها وتداعيات ذلك. فبتكرار الشعائر والممارسات الثّقافيّة وبالتّرغيب فيها والتّرهيب من التّخلي عنها تستمدّ العائلة القدرة على المحافظة على استمرارية الطّقوس والعادات التّي تكوّن ثقافتها المحليّة. لكن من خلال معايشتنا للسّلوك اليوميّ للأفراد والجماعات في علاقة بثورة الاتّصال نلاحظ صراعات عنيفة بين الفرد والعائلة والمجتمع انبثقت عنها ازدواجيّة ثقافيّة في بعض الممارسات اليوميّة لدى العائلة الواحدة. فبعدما كانت الأسرة هي النواة التي تدور حولها كلّ القضايا الحياتيّة والاجتماعيّة، أصبحت تعيش تمزّقا وانشقاقا أدّى إلى تفتّت وإضعاف العلاقات والروابط بين أبناء

الأسرة الواحدة. فاختلّ التّوازن داخل الأسرة وخارجها، وهذه النّقلة لم تكن سلسة بل أصابت الذّات العائليّة في بنيتها الدّاخليّة، وفي عمق كيانها وفي جسدها الثّقافيّ والاجتماعيّ، وفتّت عناصرها وقسّمها إلى كيانات مختلفة. فيها كيان يدّعي الأصالة والتّراث والهويّة والانتماء ويتمسّك بالعادات والتّقاليد المحليّة الأصيلة، لأنّها حالات معنويّة ذات علاقة روحيّة متجذّرة في لا وعي النّاس وساكنة في ضمائرهم وتتجلّى في سلوكهم، ولها وظائف حيويّة وإنسانيّة وليست عنوانا للماضي أو عائقا للتقدم. وفيها كيان ثان يدّعي الحداثة والتّجديد ويعتقد أن العادات والموروثات أصبحت باليّة في عصر العولمة ولم تعد تلبّي متطلّبات العصر خاصة عندما اقتحمت العولمة كلّ المجالات وأحدثت تغيرا اجتماعيا بدأ بالعائلة وانتقل إلى المجتمع وأثّر على الأدوار الاجتماعيّة التي يقوم بها الأفراد، وعلى النّظم الاجتماعيّة وقواعد الضّبط الاجتماعي في مدّة زمنيّة قد لا تطول أمام حالة الإدمان على هذه المواقع حسب بعض الإحصائيات التّي بيّنت ارتفاعا ملحوظا في عدد رواد هذه المواقع. فتتغيّر القيم الاجتماعيّة ويتغيّر النّظام الاجتماعيّ وتتغيّر كذلك مراكز الأشخاص، و طرق اشتغال المؤسّسات الاجتماعيّة وسلوك الأفراد، وستطفو على السّطح الافتراضيّ شخصيّات مؤثّرة كثيرا في السّلوك لن تكون كذلك لولا هذه المواقع "كالفيسبوكي" أو "الانستقرامور" وسيكون من الصّعب تسمية وسائل الاتّصال الشّبكيّ تجربة شخصيّة نظرا لتأثيرها اليوميّ على حياة الأفراد فتغيّرت فرص العمل، وطرق التّعارف، والتسوّق والدّراسة بل وتغيّرت أدوار مؤسّسات التّنشئة وتراجع منسوب الحوار بين أفرادها بسبب انشغالهم بهذا الجهاز العجيب الذي يقرّبهم من العالم الممتدّ ويبعّدهم عن عالمهم الصّغير، وبغياب الحوار وعادة القصّ الجميلة التّي تحكي أساطير وخرافات ووقائع تنمّي مخيال الطفل وتنسج جسرا بين الماضي والحاضر، غاب جزء من ثقافتنا كان يتسلّل إلينا عبر الحكايات حيث كان الجدّ والجدّة والأمّ والأب يروون القصص والأساطير لأطفالهم قبل النّوم يُمرّر من خلالها مخزون ثقافي شفهي تتداوله الأجيال. لكن اليوم غابت أو تكاد عادة القصّ أمام الاجتياح الكبير لمختلف وسائل الاتّصال الذّكيّة التّي غيّرت كذلك شكل اللّعب فانخفضت وتيرة اللّعب داخل العائلة ومع الأقران والتجأ أغلب الأطفال في يومنا هذا إلى ممارسة الألعاب الإلكترونيّة لأسباب يطول شرحها فيها ما له علاقة

بالاقتصاديّ ودخول المرأة سوق الشّغل و ما تبعه من تمدّن وتغيّر في شكل المعمار على حساب مساحات اللّعب التّقليديّ الشّعبيّ. وفيها ما يتعلق بالتّطوّر التّكنولوجيّ وما تمّ ابتداعه من ألعاب صُمّمت بطرق عجيبة تجعل الطفل أسيرها عن طريق مؤثّرات صوتيّة ومرئيّة تمارس عليه عنفا رمزيّا بالمعنى الذي تحدّث عنه بورديي لأنّها تفرض عليه مناخا خاصّا وطقوسا معيّنة ولا تترك له مجالا للإبداع والتّغيير فتخاله كالرّجل الآلي الذي يتحرك وفق الأوامر. على عكس هذه الألعاب كانت الألعاب التّقليديّة الشّعبيّة تنمّي خيال الطّفل بابتداع الأفكار والحيل وتفرض على اللاّعب أن يكون حرّا ومستقلّا وغير ملتزم وأن يكون غير محكوم بقواعد معلومة سلفا فهي نشاط حرّ ولا يمكن معها أن نتحدث عن لعب إجباري (Caillois Roger,1958, p373)ويمكن أن يمارسها الكبار والصغار لأنّها بسيطة وليست مكلفة في أدواتها وهي وعاء طريف يحفظ وينقل الثّقافة " (نجلاء بشّور نصير، 1989، 125ص)، وتساهم في التربية والتعلم والترفيه و تهذيب السّلوك. وهي رياضة للرّوح والجّسد، وقوامها التّفاعل الذّي يحرّك في اللاّعب الطّاقة الكامنة للتّعبير عن جملة أحاسيسه وانفعالاته وتُمرّر من خلاله بعض القيم كالأخذ والعطاء والتّعاون والتّضامن وتبادل الأفكار والآراء، فيتعلّم الأطفال من بعضهم بعض. لكن هذا التفاعل الإيجابيّ في الألعاب الشعبيّة والحرّيّة وحركة الجسد والتّي تمثل وسائل لتمرير الثّقافة الشّعبيّة تغيب في الألعاب الإلكترونية التّي تمارس جلوسا ولا تتحرّك فيها إلاّ الأنامل وبعض الحركات المتشنّجة كالرّكل و بعض الصرخات التّي قد تتحوّل إلى نوبة من السّب والشّتم نتيجة الضغط المسلّط من اللّعبة ومناخها وقوانينها على اللاّعب. ويشتدّ هذا الضّغط عندما يدمن اللاّعب على هذه المسلّيات فتتواصل في الزّمان فيتذبذب توقيت النّوم والأكل فتصاب الصّحّة الجسديّة بالاضطرابات المتعدّدة كالسّمنة أو الهزال وضعف البصر وآلام في الظّهر والرّقبة. وتكرّس عزلة الفرد التّي ينتفي معها الاختلاط والتّفاعل الذّي يمثّل جسرا لانتقال الثّقافة عموديّا وأفقيّا. فهذه الوسائل هي أدوات لنفي الهويّة الذّاتيّة لأنّها تساهم في تشكل تجربة الذلّ التّي تحدّث عنها هونيث اكسيل بأشكالها الثلاثة: العنف المتنوع الأشكال الذي تسلطه هذه الوسائل على الفرد، وتساهم في انتهاك حقوقه الأساسية كحقه في الراحة والنمو السليم والتواصل واللعب الواقعيين

وهي حقوق أتى عليها الإدمان الإلكترونيّ وحرمه من لذة العيش الطبيعي في محيط عائلي سليم يضمن له تنشئة متوازنة، إذ ينتابه شعور بالوحدة والعزلة والاغتراب عن عالمه الواقعي ويتملّكه شعور سلبيّ ينعكس على الذّات الفرديّة ولهذا أضحت تجربة الذّل على حد اعتبار هونيث أداة تهدّد بشكل مباشر تحطيم الهويّة الذّاتيّة للأفراد حيث" تهدّد تجربة المهانة والإذلال الاجتماعي الكائنات الإنسانيّة في هويّتها تماما كما تهدّدها الأمراض في وجودها الطبيعيّ" (أكسل هونيث، 2015، ص 246) فيفقد الفرد ثقته بنفسه تدريجيّا عندما يتخلّى المحيطون به عن واجب الإحاطة والحماية ثمّ يفقد ثقتة في عالمه فيشكّل ذلك خطرا يهدّد المجتمع في أفراده بما هم حاملون لهويّة المجتمع وثقافته ومستقبله ومن فقد الثقة في نفسه سيبحث عنها حتما في الآخر الذي يعتبره قدوة فيتأثّر بسلوكه وبأفعاله وهنا تكمن خطورة هذه الوسائل وقدرتها على التّأثير والسيطرة خاصّة على من اهتزّت ثقته في نفسه وفي هويّته ورأى في الآخر القدوة الحسنة. فيستحسن كلّ ما تأتي به التكنولوجيا من آلات وسلوكات فيتأثّر بها تدريجيا على حساب كلّ ما هو خصوصيّ وأصيل.

III-التّواصل الشّبكيّ وثورة على الأصالة: تُهيمن التّكنولوجيا الحديثة بشكل كبير على حياتنا اليوميّة وتدخل في كلّ تفاصيلها حتّى وصل الحال إلى الاستغناء عن بعض الأدوات التّقليديّة والاستعاضة عنها بأدوات أخرى إلكترونيّة أو تقنيّة أثّرت على المنتوج والجودة وعلى جانب من هويّتنا وحضارتنا. ففي ميدان العمل والشّغل تمّ التّخلي على بعض الأدوات البسيطة والمهن اليدويّة واستبدالها بأخرى عصريّة فتغيّرت بعض الأعمال في طريقة تأديتها وشكلها ووسائلها وكذلك صبغتها فاندثرت أعمال وأُحدثت أعمال أخرى عندما غزت التألية مجال الصّناعة والزّراعة فتمّ الاستغناء عن الأعمال اليدويّة البطيئة ودخلت الآلة لإغراق السوق بمواد مصنّعة وبأثمان مدروسة. هجر العديد من الحرفيين مجال الصّناعات التّقليديّة لأنّها لن تستطيع مسايرة الصّناعات الحديثة في سرعة الإنتاج ووفرته إلى جانب تكلفتها في الموادّ والوقت الذّي تستغرقه وقلّة التّرويج. فأصبحت بعض الصّناعات التّقليديّة مهدّدة في وجودها بعدما كانت تؤدّي وظائف متعدّدة ودخلت الوجدان الشّعبيّ لتلبية رغبات المعايشة، وظلّت حيّة بحياته وتتحرّك بحركاته

على مدى تاريخه الثّقافيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ والاقتصاديّ المحليّ بكلّ ما تمتاز به وما تحمله بين طيّاتها من عراقة وأصالة وواقعيّة وجماعيّة، وتمثّل مخزونا ثقافيّا للمنطقة و تراثا ماديا ثمينا يتوارثه الأجيال من الجدّ إلى الأب إلى الابن. لكن بعد التّطوّر التّكنولوجيّ أُجبر بعض الحرفيين على التخلّى عن هذه الحرف فاندثر بعضها وترك لوعة في نفوس الآباء والأجداد الذين أغلقوا محلاتهم الواحد تلو الآخر بعدما عجزوا عن توريث مهنهم التّي أصبحت تسير في طريق الاندثار بعدما كانت بعض الألقاب كناية عن الحرفة التي كانوا يمتهنونها كالحدّاد والنجّار و الشّواشيّ، بسبب غزو منتوجات أجنبيّة تمّ الإشهار لها بكثافة داخل الصفحات الجماعيّة على حساب الحرف المحلّيّة فأصبحنا نتهافت على المنتوجات التّركيّة و الصّينيّة وكذلك أصبح لبعض المنتوجات المغربيّة والمصريّة حظّ كثير في بلادنا وسجّلت حضورها من خلال "القفطان المغربيّ" وقاعات جلوس مغربيّة" والأثاث "الأنتيكة" المصريّ. ولم يقف تأثير هذه المواقع عند هذا الحدّ بل تغيّرت مراسم الحفلات التّقليديّة في بلادنا كالزّواج والاحتفال بالمولود الجديد والختان والعيدين والمولد. تغيّرت مراسم الزّواج وأصبح التّعارف وعلاقات الحبّ تحبك عبر الشّبكات الاجتماعيّة فجمعت زوجين من أوساط مختلفة وثقافات متنوعة أجبرتهما على توخّي طرق جديدة في الزّواج فرضتها ظروف الاختلاف فقد تتغير مراسم الزواج وتختصر في ليلة واحدة بعدما كان "أياما من الأفراح والليالي الملاح" فتُلغى عديد الطقوس أو تُستبدل بطقوس وافدة وحتى المتزوجين من نفس البيئة قد يغيّرون من بعض العادات اقتداء ب"انستغراموز" مشهورة غيّرت بعض العادات وألغت أخرى وأضافت طقوسا جديدة لم تكن معروفة وأصبحت بحكم التأثّر بتلك"الشّخصيّة الافتراضيّة وبحكم تطبيقة النّشر من طرف المستخدمين عادات شبه مألوفة و لا يجب الاستغناء عنها ومن لا يمارسها فهو "متخلّف" افتراضيا ومن تلك الطّقوس الوافدة والمكلفة تكليف "متعهد حفلاتtraiteur بالتكفّل بالولائم التّي كانت في السّابق، وفي مدن الجنوب الشرقي مثلا تقوم بها العائلة الموسّعة– رجالا ونساء – ويتم خلال الإعداد للمأدبة القيام بعديد الطقوس المرتبطة بها كالغناء التقليدي الذي يحكي طقوس الاحتفال ويُؤدّى جماعيا من طرف مجموعة النّساء ويُردّد من طرف الحضور خاصّة الأطفال الذين ينقلون مثل هذه العادات في لعبهم اليومي فتتوارث

جيلا بعد جيل. يتعاون الرّجال والنساء من العائلة ومن الجيران في طبخ الوليمة ثم تقديمها للحضور ويحرصون على حسن التّنظيم كي تقدم الأكلة لجميع المدعوين. تطبخ أكلات متنوعة في ولائم احتفالات الزواج وكلّ يوم من أيام الزّفاف يختصّ بأكلة معيّنة، ففي اليوم الأوّل أي يوم "الكسوة" تطبخ "العصيدة البيضاء" وتسمّى كذلك "العيش" ويُطبخ لها مرق يسمّى "المعقود" يطبخ بالطماطم والفلفل والزيت ويضاف له القرع الأحمر ويكون طعمه لذيذا ويُسكب هذا المرق على "العيش" أو العصيدة ويُقدّم في أواني فخاريّة وهي أكلة تجمع بين الاقتصاد في تكلفتها واللذّة في مطعمها والأصالة في أدواتها (قدر نحاسي وقطعة من جذع النّخلة للخلط وتطبخ على الحطب وآنية فخار للتّقديم) وإلى جانب طعمهاالّلذيذ فهي أكلة صحيّة لا تعتمد المواد المصبرّة . وفي اليوم الثاني يطبخ الكسكسي باللّحم وهو السّمة المميزة لأكلة الوليمة الكبرى في عرس الجنوب الشرقي للبلاد التونسية. فمنذ الصّباح الباكر يتمّ تقسيم الأعمال بين الجنسين إذ يختص الرّجال بالذّبح والسّلخ ثم طبخ الكسكسي بكميات كبيرة على الحطب ثم يطبخ المرق على حده. أمّا النسوة فتجتهدن في خلط الكسكسي بالمرق في جو بهيج من الغناء والفرح. تحكي الأغاني مراسم الاحتفال تارة وتمجّد العروس تارة أخرى، وعند الانتهاء من الطبخ يُقدّم الكسكسي في أواني فخارية ويُسكب عليه المرق و يعتبر الكسكسي أكلة شعبيّة محبّذة في كلّ الولائم وخاصّة في حفلات الزّواج ولا تعتمد في طبخها المصبّرات وتؤكل مباشرة بعد طبخها. لكن اليوم وبحكم التّطور الذي وفد علينا عبر النافذة الافتراضية أصبحنا نشاهد إشهارات عديدة على مواقع التواصل الاجتماعي لمتعهدي الحفلات منذ اليوم الأول إلى اليوم الأخير مختصين في الطبخ والديكور والتنظيم، فيتهافت عليه البعض بدعوى التّقدم والتّمدّن والتّجديد وبتكرار الإشهارات الافتراضية لتلك السّلوكات الوافدة أصبحت محبّذة، ودليلا على التّطور فلاحظنا تخلّي بعض العائلات عن عادات الوليمة التّقليديّة وأصبحت تلتجئ إلى متعهّد حفلات فتقلّ فرص التّلاقي بين الناشئة والتعرّف على عادات الاحتفال وأغانيه وأهازيجه حيث يتمّ الالتجاء إلى متعهد الحفلات الذي يُحضر فريقا كاملا بزي موحّد، ويقوم بإعداد الولائم وتقديمها في صحون على غير العادة. وقد يتمّ التّخلي على الأكلات الشعبية الأولى كالكسكسي وتغييره ب"الأرز' وهي أكلة دخيلة على

الأكلات الشّعبيّة التّونسيّة وفدت علينا من بعض الدول الشرقيّة بحكم التّلاقح الثقافيّ الافتراضيّ والإشهار لها من طرف مشاهير هذا العالم و أصبحت تزاحم الأكلات الشّعبيّة التّونسيّة بل أصبحت عنوانا للتّقدّم والتّطوّر ، كذلك بعض السلوكات الأخرى التّي تُصنع افتراضيا و بحكم التّكرار وكثرة النّشر تصبح سلوكا مرغوبا من المستخدم من ذلك عادات الاحتفال بالحمل الجديد، الذي أصبح حدثا يعتدّ به وتقام له الاحتفالات ولا يتمّ الإفصاح عن جنس المولود إلا بتنظيم حفلة للغرض يعتمد فيها ديكور خاص بالولد أو البنت ومن خلال الديكور يكتشف الضيوف جنس المولود فتتم التّباريك ويشربون ما لذّ وطاب من حلويات وعصائر بعدما كان الحمل يُخفى ولا يعلمه إلاّ المقربون. ولا يُعلم به إلا إذا بانت البطن. وكانت المرأة تتحرّج من الحديث عن الحمل خارج العائلة و تمعن في إخفائه في الأشهر الأولى في الثّقافة الشّرقيّة عموما. أمّا عند الولادة فيرهق الأب بكثرة الطّلبات حيث يصل الأمر إلى تجديد الماعون الذي ستقدّم فيه المأكولات للمدعوين بأحدث ما يعرض على الانترنت من أواني وأطباق وكؤوس من كل أصقاع العالم. وتتنوع الأكلات في هذه المناسبة فبعدما كانت العصيدة البيضاء بزيت الزيتون هي الأصل مع قليل من المرق الذي يطبخ مع الحبوب(حمص وعدس وفول) وتسمّى "الطبيخة" أصبحت هذه الأكلات ثانويّة في بعض الأحيان حيث بدأ الاستغناء التّدريجيّ عن الأكلات الشّعبيّة وكذلك عن الأواني التّقليديّة التّي تطبخ وتقدم فيها وكذلك عن بعض الأثاث التقليدي بغيره الوافد بطرق افتراضيّة متعدّدة وفّرت له الإشهار والتسويق. ولاقت طقوس العيدين كذلك تغيّرا بعد التّطوّر التّكنولوجيّ حيث أصبحت المعايدات تتمّ عن بعد وقبل حلول العيد بيوم وأكثر عن طريق إرساليات سريعة ودقيقة ومعبّرة وتكون بأشكال مختلفة كالكلمة أو الصّورة أو المقاطع السمعيّة أو المقاطع السمعيّة البصريّة التّي تجمع مابين الكلمة الحلوة والصورة الجميلة وتتهاطل إرساليات المعايدة بالعشرات وتكون كافية لدى البعض ويستسهلها الكثيرون وتعوّض الحضور الميداني للاحتفال مع الأهل والأقارب رغم أنّ العيد هو عنوان اللمّة العائليّة والتّزاور وفرصة لرؤية الأهل والأحباب وكان لوقت قريب يعتبر من باب الواجب العودة إلى مسقط الرأس في العيدين وآداء صلاة العيد في "مسجد الحومة" والقيام بواجب المعايدة للأجوار والأقارب وهناك من يستغل لمّة

العائلة الموسّعة في العيدين للقيام بحفلات الخطوبة أو الختان لكن مع التطور التكنولوجي في مجال التّواصل نقصت عادات التّزاور وعوّضتها معايدات تتمّ بكاميرا الهاتف فالمرء يتواصل بانسيابية واستمتاع مع أشخاص من أقاصي الأرض، ويخصّص لذلك أوقات غالية، ولكنه قد يستثقل أن يخصص يوما أو يومين لأفراد أسرته يتواصل خلالها معهم مباشرة ، أو أن يفارق مقعده ليتستمتع بالتّزاور ولقاء الأحباب و الأصدقاء الحقيقيين في المناسبات السعيدة والحزينة حيث كان البشر يتواصلون من خلال الزيارات المُتبادلة بين الأهل والأصدقاء ليعبّروا عما في داخلهم ويشاركون بأرواحهم وأجسادهم بما عودتنا التقاليد عليه في معظم المناسبات، والتي بدأت تتلاشى تدريجاً أمام استسهال الإرساليات والتصافح عن بعد فغابت المشاعر الحقيقيّة في الفرح كما في الحزن ومهما اجتهدت التكنولوجيا بتطبيقاتها المختلفة لن تصل لذّة الضمّ و حرارة القبلات وتعبيرات الدموع فيبقى سؤال المشاعر يطرح نفسه في الافتراضي.

VI-التّطور التّكنولوجيّ والتّغيّر الإيجابيّ:

إنّ الرّمزيّة التّي انبتت عليها الظّاهرة الثّقافيّة هي الشريان الذي يبعث فيها الحياة ولا ينقطع رغم التّطوّر والتّحوّل في ممارسة بعض طقوسها ففي الظّواهر الدّينيّة مثلا "لا يكفي أن يدرك المرء معنى ظاهرة دينيّة في ثقافة معيّنة ، وأن يعمد من ثمّ إلى فكّ رموز رسالتها إذ أن كل رسالة دينيّة تشكّل شفرة، بل يتوجّب أيضا دراسة تاريخها، أي تفصيل مسارات تغيّراتها وتبدّلاتها، وصولا في نهاية الأمر إلى استخلاص مساهمتها في الثّقافة بأسرها (مرسيا إلياد، 2009، ص 59) فرغم بروز ظاهرة المعايدة عن بعد فإنّ رمزيّة العيدين وشهر رمضان وارتباطها بالصّدقة والإحساس بالفقير لم تنقطع. وساهمت مواقع التّواصل الافتراضيّ في تكريسها حيث تُقام حملات تبرع وجمع الصّدقات لشراء أضحيّات وألبسة العيد للأيتام والفقراء وفي كل مناسبة دينيّة تصبح عديد الصفحات الفيسبوكية الخاصّة والجماعيّة منابر لجمع التّبرّعات. لذلك يجب التّسلح ب"الخيال السّوسيولوجيّ" لفهم الظّواهر الاجتماعيّة أي تشجيع الأفراد على تغيير وجهات نظرهم والانفتاح على المشهد العالميّ وعدم التعصّب للحقيقة الواحدة والانطواء في زوايا معزولة لإدراك العلاقة بين التّجربة الشّخصيّة والعالم من حولك وذلك هو استخدام "الخيال الاجتماعيّ" لفهم

عمليّة التّغيّر الاجتماعيّ التّي تتأثّر بعوامل عديدة كالدّيمغرافيّة والثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وخاصة التكنولوجيّة، فالتّطوّر التّكنولوجيّ عامّة وفي مجال الاتّصال خاصّة ساهم بطرق ملحوظة في ديناميكيّة المجتمعات وتلاقحها. و ما يسجّل من حين إلى آخر من عادات وتقاليد جديدة في الفضاء المحلّي، هو تعبير عن التّغيّر الاجتماعيّ والانفتاح الثقافيّ، وهو ثراء ثقافيّ وتجديد، وليس طمسا للهويّة والدّليل أن ما تقع مقاومته ورفضه من عادات في البداية يتمّ قبوله لاحقا لذلك لا يجب الانسياق نحو تهويل تأثير وسائل التواصل الشّبكي على الهويّة الثقافيّة لأنّها كانت في السّابق تراكما لخبرات وتجارب أعراق مختلفة عاشت في نفس المكان والآن هي فسيفساء لتجارب وافدة من كل العالم تأقلمت مع بعضها وتصاهرت لتبدو في حلّة جديدة وطريقة التعامل معها يجب أن يُراعى فيها الجانب البراقماتي الذي يعود بالنّفع الماديّ والرّوحي على الفرد والمجموعة. وعندما يحدث تقهقر في التّغيّر الاجتماعيّ فيجب البحث عن الأسباب الجذريّة خارج هذه المواقع لأنّ هذه الوسائل ليس لها تأثير منفصل خارج السّياق الثّقافيّ والاجتماعيّ للمستخدمين من ناحيّة، ومن ناحيّة أخرى ساهمت هذه الوسائل في تيسير الحياة وتقريب المسافات فأصبح التّسوق عن بعد لمن لا يستطيع السّفر والعمل عن بعد و الدّراسة عن بعد لكي لا تكون المسافات عائقا أمام العمل و المعرفة والعلم. فتعاملنا مع هذه الوسائل هو المحدّد لنتائجها، فإذا استثمرناها من أجل الرّقيّ والعلم وتبادل الخبرات فأنّها ستُحدث تطوّرا في تجاربنا ومعتقداتنا وهويتنا وتساهم في تأصيلنا من ناحية وتقدمنا من ناحية أخرى كي لا يفوتنا قطار الحضارة. ولا تفوتنا الإشارة إلى أن هذه الوسائل ساهمت في الإشهار لبعض الحرف التقليدية التي بفضلها أصبحت لها أسواق في الخارج بعدما كانت تروّج محليّا فقط. وأصبحنا نرى صفحات افتراضيّة لمنتوجات شعبيّة ك"العولة" والعولة هي مجموعة منتوجات غذائيّة شعبيّة تعبّر عن أصالة وهويّة. يتمّ إعداد هذه المنتوجات يدويّا ولا تستخدم فيها موادّ مصبّرة أو كيميائيّة ومن هذه الموادّ نذكر "الشّربة" والتّي يكثر إنتاجها في شهر رمضان، حيث تزدحم صفحات التّواصل الافتراضي في الإشهار للشّربة العربي بأنواعها و دقيق الشّعير والملثوث والفلفل المعجون والبسيسة وغيرها من المنتوجات التّي تعتبر أساسيّة في بعض الأكلات الشّعبيّة التي انتعشت بفضل التّطور التّكنولوجيّ. وفي المثال

التّالي منشور في ص جماعيّة "لمّة بنات الخير"على مواقع التّواصل الافتراضيّ فيسبوك سألت فيه صاحبة المنشور عن إمكانيّة الحصول على منتوج غذائيّ تقليديّ ومن بين التّعليقات نجد إشهارا لص تختصّ في إعداد العولة.

صورة عدد1: منشور من ص جماعية خاصة وهذا رابطها:

https://www.facebook.com/groups/462229927501478

V-الاعتراف التّذاوتيّ لتعايش ثقافيّ: أصبح العالم "القرية" يقوم على مبادئ السّوق والتّبادل التّجاريّ والإعلاميّ والتكنولوجي ونشط التّسويق الشّبكيّ لكلّ المنتجات الثّقافيّة والسّلوكات الاجتماعيّة وانتهت بموجبه كثير من مفاهيم الاستقلال والصّياغات المحلّيّة لمفردات الحياة عندما أصبح الانفتاح على العالم غير محدود. وتشكّل وعي بالوجود المشترك حيث يستهلك البعض ما ينتجه الآخر والعكس صحيح. فالتّقدّم التّقنيّ يفرض علينا تحديّا كبيرا لمواكبة التّطور العالميّ لأنّه لم يعد يقتصر على الهوّة الرّقميّة التّي تفصل بين البلدان المتقدّمة والنّاميّة بل يجب مواجهة التّحدّي الثّقافيّ كي لا نذوب في الآخر فنصيب هويّتنا في ماضيها وحاضرها ويستوجب علينا مواكبة التحوّلات في شتّى المجالات الحياتيّة ونستثمرها في "صناعة المحتوى المؤثّر" لأنّ "المحتوى هو

الملـك" ويجـب أن نملـك مقوّمـات صـناعة المحتـوى مـن حيـث معـدّل النشّـر الـورقي والالكترونـي، والإنتـاج الإعلامـي والالكترونـي والبرمجيـات التطبيقيـة والحـرص علـى تـوفر المـواد الخـام لإنتـاج المحتـوى مثـل الأرشـيف الـورقي والالكترونـي والبيانـات والصـور ثـم نمـر إلـى الوسـائل التـي تصـنع المحتـوى كصـفحات الويـب وأدوات النشـر الالكترونـي وأدوات تصـميم البـرامج ليـتم اسـتثمارها فـي صـناعة محتـوى قوامـه الموروثـات أو التعبيـرات الثقافيـة المـأثورة والتـي تمثـل دافعـا معنويـا ضـروريا ومصـدرا روحيـا لا ينضـب ومكوناتهـا مـن حكايـات وموسـيقى وحـرف وفـن وزخـارف تمثـل أساسـا لنهضـة اجتماعيـة ثقافيـة تسـهم فـي التنميـة الاقتصـادية للجماعـة والمجتمـع وكـم مـن أعمـال فنيـة محترمـة لاقـت رواجـا وانتشـارا وبقـاء علـى مسـتوى الثقافـة الإنسـانية. إن الانغمـاس الكلـي فـي العـالم الافتراضـي علـى حسـاب الـواقعي مهمـا كانـت درجـة تملكنـا للتقنيـة سـيحدث خلـلا فـي حياتنـا إذا غلّبنـا الافتراضـي علـى الـواقعي لـذلك يجـب ترشـيد اسـتهلاك الانترنـت خاصـة داخـل العائلـة ولا يجـب أن يطغـى اسـتعمال الانترنـت علـى الوقـت المخصـص للرعايـة بالأطفـال لضـمان تنشـئة سـليمة ومتوازنـة التـي تسـتوجب مـن المسـؤول الأول علـى الرعايـة ضـخ طاقـة مـن الحـب والعطـف والحنـان تضـمن للطفـل نمـوا نفسـيا واجتماعيـا وجسـديا سـليما يتمظهـر فـي الانـدماج الاجتمـاعي السـليم و قـوة الشخصـية وثقـة فـي الـنفس تسـاعد علـى بنـاء الهويـة الذاتيـة التـي لا يمكـن أن تتحقـق إلا مـن خـلال الاعتـراف بـالآخر وتحقيـق التـذاوت الـذي حـدده هونيـث فـي ثلاثـة أشـكال هـي "الحـب" و "الحـق" وال"التضـامن" وتعـد علاقـة الطفـل بوالديـه أولـى مسـتويات الشـكل الأولـي "الحـب" أو التـذاوت الأولـي intersubjectivite primaire وتمهـد هـذه العلاقـة التذاوتيـة للفـرد بالشـعور العـاطفي وبثقـة بذاتـه الأمـر الـذي يمـنح الفـرد والـذات الإنسـانية عامـة دافعـا نحـو تحقيـق اسـتقلال ذاتـي. فالشـخص المحبـوب مـا إن يتأكـد مـن عاطفـة مـن حولـه سـيجد القـوة لينسـحب إلـى ذاتـه وينفـتح عليهـا ويجعلهـا ذاتـا مسـتقلة واثقـة مـن رغباتهـا فتكـون لـه الشـجاعة لإظهـار حاجاتـه ومشـاعره بهـدوء محققـا بـذلك الثقـة التـي تجعـل منهـا ذاتـا مسـتقرة نفسـيا ووجـدانيا ومتشـبعة بحقوقهـا التـي

تختلف باختلاف الفترات العمرية وتمر من الحقوق الأساسية فترة الطفولة كحق الرعاية والمأكل والملبس، إلى الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية في فترات لاحقة من العمر فحصول الفرد على حقوقه الذاتية يجعله فردا قادرا على مشاركة الآخرين في شؤون الحياة بكل ثقة بنفسه.ومن هنا نرى دور التنشئة السليمة على إكساب الفرد القدرة على مشاركة الآخرين بطريقة تجعله في مواقف قوة وإضافة تجلب له الاحترام وتعزز مكانته وتحفظ هويته من الاندثار والذوبان في الآخر. وتحررنا ثقافة التذاوت والاعتراف من التصنيف الذي لازم مفكري المذهب التاريخي لأن الذي يستبطن فكرة التصنيف سيبرر النظرية التفاضلية بين شعب وشعب وبين ثقافة وثقافة ومن هنا ظهر مفهوم "بدائي" وهو مفهوم معمول به في المعجم السوسيولوجي والانتولوجي لأنه يحيل على التصنيف وهنا إشارة إلى مفهوم البدائية التي اعتبرت لدى مفكري المذهب التاريخي حقائق يقينية أو مسلمات، تقول بفكرة التطوّر التّاريخي، والتفكير العلمي. فقد نظر هؤلاء إلى التاريخ باعتباره "متدرجا" وفي حركة تقدم مطردة من أدنى إلى أعلى، والتفكير العلمي في رأيهم مرحلة متقدمة في مقابل "السحر والأسطورة" التي طبعت تفكير الإنسان البدائي ، يعتقد أصحاب "المذهب التاريخي" بأن البشرية في تقدم دائم، وفي صعود مستمر نحو الأمام، وهذا التقدم ناتج عن الاستفادة من الأخطاء، التي يتم التخلص منها على مر الزمن لتصل البشرية إلى مستوى أرفع وأرفع، وبموجب هذا الرأي، فإن البشرية قادرة على الوصول إلى الكمال. ويبدو أن الدافع لهذا التصور هو التأثر الكبير بالتطور الذي شهده الإنسان في الصّناعة وفي العلوم الطبيعية. وبناء على هذا التصور تعتقد النظرة التطورية للتاريخ البشري بأن الحضارات البشرية مرت في تطورها بمراحل متدرجة من البدائية إلى المتحضرة وسترتقي أكثر في المستقبل و أوضح مثال على ذلك التفسير الماركسي للتاريخ، فالماركسية ترى بأن المجتمع الإنساني قد بدأ من المشاعية إلى العبودية، ثم الإقطاع والبرجوازية وصولا إلى الرأسمالية وبعدها الاشتراكية، والشيوعية في نهاية المطاف. وكل مرحلة من مراحل

المجتمع هي أرقى من سابقتها وأكثر تعقيدا في تنظيمها، وهذا الرقي أو التطور نحو الأحسن "حتمي". إن النظرة التطورية للتاريخ تحمل في جرابها نظرة تفاضلية والتاريخ حسب تصورها هو سلسلة أحداث في تقدم دائم و الحاضر أكثر تقدّما ورقيّا من الماضي لكن هذا التصور التطوري للتاريخ فنده لفي ستراوس لما أعلن أن التاريخ لا يتطور في اتجاه واحد فهناك عدة حضارات عرفت الازدهار ثم انتكست وظهرت قوى أخرى وتاريخ البشرية مراوحة بين النجاح والفشل. والبدائي هي مجموعة من الشعوب تجهل الكتابة فبقيت خارج بحث المؤرخ وضلت بعيدة ببنيتها الاجتماعية ومفهومها للعالم إلا أن "بنية المجتمع ثابتة مهما اختلفت الأحداث التاريخية والتقدم ليس خطيّا بل يأتي بصورة قفزات أو وثبات" تشبه قفزات أو وثبات حصان الشطرنج في حركاته، حيث أن قانون اللعبة يجعل حركته قابلة لعدة احتمالات أو اتجاهات، نحو التقدم أو الإخفاق والنكسات(كلود لفي ستروس، 1982، الصفحات 19-20)، أي ليس شرطا أن تكون الحركة في الاتجاه نفسه وكأن التقدم يسير بخط مستقيم وحركة التاريخ تقاس بالتقدم والإخفاق.

08-الخاتمة:

يصبح التواصل والاعتراف مطلبا ملحا خاصة أمام الغزو الاتصالي لتنتفي معها مقولة شعوب متخلفة وشعوب متقدمة وثقافة بالية وثقافة متحررة فلا تستقيم الأحكام المعيارية التفاضلية بين الثقافات والشعوب والتقسيمات بين عالم غربي متقدم وآخر شرقي متخلف ثقافيا فننظر لثقافتنا وهويتنا نظرة دونية مقابل نظرة الإعجاب بكل ماهو وافد من الآخر والدليل أن الماضي ليس تخلّفا، ولم تكن الشعوب في الماضي تمر بمرحلة "الطفولة"، إنما كانت ناضجة حضاريا وحتى المجتمعات التي توصف بالبدائية لا نستطيع أن نجزم بأنها "متدنية" في تفكيرها ومن ثم ارتقت البشرية انطلاقا منها إلى ما هي عليه الآن، وبالرغم أن بعض الانتروبولوجيين مثل كلود لفي ستروس لا ينكر وجود مجتمعات بدائية التي تعرضت على مر السنين إلى جميع أنواع التحولات

ومرت في عهود الأزمات والرخاء، وعرفت الحروب والهجرات والمغامرات. غير أنها تخصصت في سبيل غير السبل التي اخترناها. ربما بقيت، من بعض النواحي، قريبة من شروط العيش القديم جدا، وهذا لا ينفي أنها تبتعد عنا، من نواحي أخرى، ويستشهد بالحضارة المصرية والصينية ويقول "تقدمتا عليها في الزمن– أي الحضارة الآلية– فالماضي ليس تخلفا، ولم تكن الشعوب في الماضي تمر بمرحلة "الطفولة"، إنما كانت ناضجة حضاريا، فلا يمكن أن نصف المجتمعات القديمة "بالوحشية" مقارنة بالمجتمعات المعاصرة، ففي المجتمعات المسماة بالبدائية هناك أناس أحبوا وكرهوا وتأملوا واخترعوا وقاتلوا فكل الشعوب راشدة، حتى تلك التي لم تكتب تاريخ طفولتها وفتوتها" (كلود ليفي شتراوس،1982 ، ص49). فلو رجعنا إلى الماضي لوجدنا "أن الأنظمة السياسية الكبرى في أفريقيا القديمة وانجازاتها القانونية، ونظرياتها الفلسفية التي خفيت طويلا على الغربيين، وفنونها التشكيلية وموسيقاها، التي تستكشف بطريقة منهجية، جميع الإمكانيات المتوفرة عبر كل وسيلة للتعبير، كلها دلائل على الماضي في غاية الخصب" (كلود ليفي شتراوس،1982، ص19–20) نستلهم من تعريف لفي ستروس لمفهوم "البدائي" ورفضه القاطع للتصنيف هو رفض قطعي للمفاضلة بين شعب وشعب وثقافة وأخرى وهي دعوة ضمنية للتواصل والاعتراف بالآخر والنظر له الند للند واحترام موروثه وكل مكونات ثقافته واستغلال العولمة في مجال التواصل لمزيد التلاقح الحضاري والتقدم فنستفيد من تجارب الغير ونفيد بما لنا من رصيد معرفي وقيمي لنؤسس حضارة إنسانية مشتركة.

قائمة المراجع:

1.أكسل هونيث (2015)، الصراع من أجل الاعتراف، ترجمة وتحقيق جورج كتورة، نشر المكتبة الشرقية.

2.الجموسي جوهر(2016)، الافتراضي والثورة، مكانة الانترنت في نشأة مجتمع مدني عربي، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

3.إلياد مارسيا (2009)، البحث عن المعنى والتاريخ في الدين، وزارة الثقافة، لبنان.

4.بارني دارن، (2015)، المجتمع الشبكي، ترجمة أنور الجمعاوي، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت. لبنان.

5.بوغازي فتحيّة ،(2017)"اتنوغرافيا الانترنت مدونة دراسات الجمهور"، مجلة تاريخ العلوم ، العدد الثامن ، ج1، شهر جوان.

6.بومنير كمال، (2012), قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرنكفورت، كنوز الحكمة، الجزائر.

7.رضوان حنان ، (2013)، اتنوغرافيا الانترنت وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية،والثقافية على الرابط التالي https://bit.ly/3ezf9mq

8.علوش نوردين، (2013)، المدرسة الألمانية النقدية: من الجيل الأول إلى الجيل الثالث، دار الفرابي للنشر والتوزيع. بيروت.

9.ليفي ستراوس كلود ، (1982) العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

10.// // // ،(1982) الانتربولوجيا البنيوية، ترجمة د.مصطفى صالح، عن منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق، ط1.

11.أشهب محمد عبد السلام (2013)، أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابر ماس، دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن.

12.بشّور نجلاء نصير(1989)، ألعاب الأطفال وسائط لنقل الثّقافة أم التّغريب، المستقبل العربي، العدد125، شهر ديسمبر.

13.Bonenfant . M, et al, (2015) l identité et multiplicité en ligne, Québec, presse de l’université de Québec,.

14.Bourdieu. Pierre, (2001), langage et pouvoir symbolique, Paris, Ed Seuil.

15.Rieffel Remy, Révolution numérique, révolution culturel? Paris Gallimard,2014.

16.caillois roger (1958), les jeux et les hommes ; Gallimard, paris.

17.Honneth, A. (2010) La lutte pour La reconnaissance, traduit de l´allemand par: pierre Rusch ,paris, Les Editions du CERF.

18.Marcel. Mauss(1983) Sociologie et anthropologie, Paris, Quadrige/ Presses universitaires de France.